الحج مرآة التاريخ البشري
رؤيا الدكتور شريعتي للحج

د. عبد الجبار الرفاعي

ويبدو ان الهموم النضالية لشريعتي، ومحاولاته الواسعة لأنسنة الدين، والتشديد على المضامين الاجتماعية للاسلام، هي الباعث لمسعاه في تحويل الاسلام ((من ثقافة الى ايديولوجيا)). وربما تأثر شريعتي باطروحات جماعة لاهوت التحرير، ودعواتهم لتحويل الدين الى ايديولوجيا لمناهضة الاستعمار، وتحرير الأرض، وتنمية المجتمع، بعيدا عن مشاغل اللاهوت الكلاسيكي.

ومما لاريب فيه ان هيمنة الايديولوجيا على وعي الباحث ولاوعيه، تحول بينه وبين الوصول الى نتائج علمية، اكثر موضوعية وحيادا في تفكيره وبحثه، ذلك ان الايديولوجيا تقود اية عملية تفكير وتوجهها الوجهة التي تنشدها، وتضاعف التحيزات والمفروضات القبلية في ذهن الباحث، وتسوقه دائما الى مواقف ونتائج محددة سلفا، باعتبار التفكير الايديولوجي يسعى الى تغيير العالم لاتفسيره. وينشغل انصار الايديولوجيا في سكب المجتمع في قوالبها ورؤيتها الخاصة، ولذلك ينددون بالتعددية، ويكرهون الناس على تفسير رسمي للمعتقدات الدينية والاجتماعية والسياسية، ويخنقون الاسئلة الكبرى، ويعملون على ترسيخ الجزمية واليقين، وبالتالي بناء مجتمع مقلد مغلق.

وتكمن المفارقة في ان شريعتي الذي أعلن عن مطمحه في الانتقال بالاسلام ((من ثقافة الى ايديولوجيا)) تسود كتاباته نزعة تفكير حرة، ترفض المجتمع المغلق، وتدعو الى اصلاح الفكر الاسلامي، والانفتاح على مختلف الأديان والثقافات. وتحكي آثاره ذائقة فنان، وروح شاعر، وعقلية ناقد، ونزعة متمرد. ومثل هذه السمات في الشخصية يتعذر على الايديولوجيا الانسجام والتوافق معها. والمفروض ان مثقفا كشريعتي يدرك مثل هذا التهافت، ويعي الالتباس بين الشخصية الايديولوجية، وشخصية المثقف، والشاعر، والفنان، والناقد، لكن موقفه ظل ملتبسا بين شفافية الفنان الرومانسي، وبين احلام وتطلعات المناضل.

العدة المعرفية للحاج علي شريعتي

تكرر ذهاب شريعتي الى ديار الرحمن عدة مرات، فقد أدى العمرة ثلاث مرات، فيما ادى الحج اكثر من مرة، في عامي ١٩٧٠و ١٩٧١ وكانت المشاعر المشرفة في مكة المكرمة، والمشاهد الكريمة في المدينة المنورة، مصدر الهام لجملة من أفكاره، وانطباعاته، وتأملاته، واشراقاته الروحية، التي أفاضها في محاضرات وكتابات احتلت مئات الصفحات من آثاره المنشورة.

وتحتل هذه المجموعة من الآثار أهمية فائقة، ليس لحجمها الواسع، وتنوع ماتناولته من موضوعات، تتصل بفلسفة التاريخ، وفلسفة العبادة، ومقاصد الشريعة، وأهدافها العامة، فقط، وانما لأنها تعبر عن تجربة مميزة في أدب الحج، و عموم الانتاج الفكري حول الحج والعمرة، باعتبار صاحبها من القلائل الذين توفروا على عدة معرفية، تجمع بين التخصص الأكاديمي في علم الاجتماع وتاريخ الأديان، والاطلاع على تراث وآداب الشعوب الاسلامية،ووعي العصر، وواقع المجتمعات الاسلامية، وأحوال العالم. وقلما نجد من يتوافر في الوقت نفسه على ذائقة فنان، وخيال شاعر، وانفعال انسان رومانسي، وخبرة في العلوم الانسانية الجديدة، واطلاع واسع على التراث والواقع، وداعية ومناضل.

في شخصية علي شريعتي نلمح عدة أبعاد، تمثل، المفكر، والباحث، والمثقف، والفنان، والناقد، والمتمرد، والداعية. وهي ابعاد ربما يبدو بعضها منافيا للبعض، لاتجتمع وتتوحد في انسان الا في حالات محدودة.

تلك هي المواهب الذاتية، والامكانات الخاصة، والأدوات المعرفية، التي يمتلكها شريعتي، وفتحت له أبوابا ونوافذ لتأمل وتحليل التجربة الدينية للحاج، ودراسة العناصر الرمزية في المناسك، وأنماط التحولات الروحية والانثروبولوجية للمسلم الحاج. قد نلتقي في ضيوف الرحمن مع مبدعين، وشعراء، وفنانين، ومفكرين، ومثقفين، وأكاديميين، وسياسيين، وعلماء دين، وعرفاء ومتصوفة، ولكن قليلا مانشاهد احدا تتجاور في شخصه وتلتحم مجموعة من تلك المواهب.

ولاريب في أن الفنان تتجسد المناسك في وجدانه بصورة تحكي الألوان، والتشكيلات، والحركات، والأصوات، وكأنها لوحة متناسقة خلابة، في اطياف ألوانها، وملامحها الجمالية، وانغامها. وهكذا تبدو المناسك في عيون السياسي، باعتبارها نموذجا لوحدة الأمة وتضامنها، ومظهرا لعزتها واقتدارها. فيما تتجلى المناسك بصورة ثالثة لدى العارف والمتصوف، وهكذا.

اما لو تكاملت مجموعة من هذه القابليات والامكانات في فرد واحد، فسوف تتسع رؤيته، لتلامس طائفة من المعاني والدلالات الرمزية العميقة التي تشي بها الفاعليات المتنوعة للحج، والمواضع المتعددة للمشاعر، يصعب على غيره استلهامها والتعرف عليها.

لقد وظف شريعتي كل عدته المعرفية، وثقافته الواسعة، وخياله الرحب في استجلاء المقاصد الكامنة وراء مناسك الحج، وأشار الى ان الوجه الظاهر للمناسك بوسعنا وعيه بما نتداوله من ادوات ادراك، لكن الوجه الخفي يتعذر علينا وعيه بهذه الأدوات، لأنه خلاصة لتجربة وجدانية باطنية، لايمكن قياسها أواكتشافها بمفهوماتنا المتعارفة، كما لانستطيع التعبير عنها بوضوح، لقصور اللغة عن حكاية الانطولوجيا الذاتية، وماتختزنه النفس من مشاعر وأحاسيس وانفعالات وانطباعات جوانية.

الحج يخلع معنى على ما لا معنى له

يعترف شريعتي بأنه عندما يتحدث عن الحج انما يلخص فهمه، وتجربته الخاصة، وماأدركه من معان، وهي بالتأكيد ليست كل المعاني، فهو يصف كتابته عن الحج بأنها ((نتاج قدرته المحدودة على التحليل والتلخيص لعرض رمزي معجز، ذلك ان المهيمن على خشبة المسرح في الحج هو ذاته المهيمن على الكون الواسع. وأقول بوضوح، لقد حاولت ان اسكب بحرا في كوز! ففي كل مرة اذهب الى الحج احاول ان اعود لتقييم ما استوحيته من المرة السابقة، لكي تنضج رؤيتي. فأكتشف آفاقا وعبرا جديدة)).(١٤)

ويمثل برغسون العالم بأنه ((بمثابة موشور زجاجي، لامتناهي الأبعاد، وقادر على تفكيك وعكس مالانهاية له من ألوان. وكل انسان يقتبس ماهو مستعد لادراكه من تلك الأبعاد والألوان، حسب شفافية قلبه، وتسامي روحه، وعلى اية حال فهو لايستطيع ادراك تمام الألوان والأبعاد)).

وهكذا هو الحج، فانه مشبع بالمعاني والدلالات، وهو كما يقول شريعتي، معلقا على رأي برغسون: عبارة عن مجموعة من الاشارات، وأجلى وعي للحج هو وعي اولئك القادرين عليادراك ماترمز اليه تلك الأشارات.(١٥)

ويضيف: ان مناسك الحج كأنها شكل زجاجي شفاف، متعدد الزوايا والأضلاع، وكل انسان عندما ينعكس نوره على ضلع من اضلاع هذا الشكل الزجاجي، يتحلل هذا النور الى مئات الألوان. فليس هناك معنى احادي لمناسك الحج. وكل انسان تبعا لذوقه، ومشاعره، وروحيته، تسطع على مرآة روحه اشعاعات ماتفيضه المناسك من انوار.(١٦)

وبالتالي ليس من الصواب ان يزعم أحد بأنه وعى كل مقاصد الحج، وتعرف على اهدافه وفلسفته بتمامها. وانه ليس هناك معنى أومقصد سوى ماوعاه.(١٧)

ان اللاجدوى، واللامعنى، واللاهدف، والحيرة، والارتياب والشك، من اعقد المشكلات التي تعاني منها اعداد غفيرة من البشر منذ فجر التاريخ، والدور الأعظم للدين في الحياة، انه يحرر الانسان من حيرته، وارتيابه، ويخلع معنى على مالامعنى له في نظره، كما يضع أهدافا عظمى للحياة، ويخلص البشر من الشعور بالعبث واللاجدوى. والحج أحد أهم الشعائر التي تبعث في المسلم الحيوية والفاعلية، وترسخ القيم الفاضلة، والأهداف الخيرة في حياته.

قبل ان يذهب المسلم الى الحج يجب ان يكون مستطيعا اداء هذه الفريضة، والاستطاعة، كما يفهمها شريعتي، لاتعني الثراء وامتلاك المال اللازم للسفر، ذلك ان الحج ليس ضريبة مالية على الثروة، وانما هو فريضة كالصلاة. ومدلول الاستطاعة هو القدرة، والفهم والحكمة، بنحو تدرك ماتفعله، والاستطاعة شرط عام لكل الممارسات الدينية المناطة بالانسان.(١٨)

ويختلط في مفهوم عامة الناس الحج بالزيارة، فيفهمون الحج بأنه زيارة الى بيت الله الحرام، غير ان صاحبنا يرفض هذا الفهم، باعتبار الزيارة تنتهي عادة عند المقصد والغاية، اما الحج فهو عملية ديناميكية، وحراك متواصل، واشواق

روحية، وسعي متوثب، وصيرورة تكاملية، لطي منازل ومقامات في مدارج التكامل المعنوي، والارتقاء من مرتبة الى اخرى.

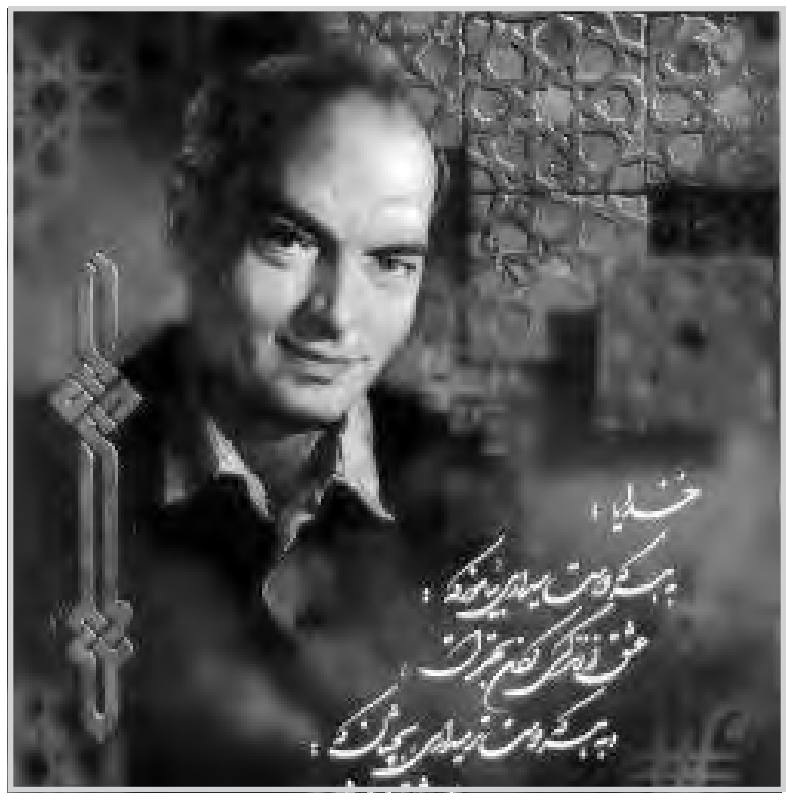

الحج حركة دائبة، مستديمة، متوثبة، من منزل الى منزل، يواكب فيها التسامي المعنوي الانتقال من مشعل الى آخر. ان الحج يبدأ حيث يهبط المسلم في الميقات ويباشر الاحرام، ويظل يتصاعد الحاج روحيا مع توالي ادائه للمناسك، ومكوثه في المشاعر.(١٩)

ومن المزايا التي ينفرد بها الحج انه مؤتمر لا كالمؤتمرات المعروفة، فعادة ما يأتلف المؤتمر من جماعة تشترك في مواصفات ترتبط بالموضوع الذي ينعقد هذا الاجتماع لأجله، وهي عادة ماتضم النخبة من ذوي الرأي. بينما الحج ملتقى واسع، يجمع مختلف اصناف المجتمع، وتسوده اعمال عبادية شاملة، ينخرط فيها كافة الحجاج، من دون نظر الى اعراقهم، ومواقعهم الطبقية،ومستوياتهم الثقافية، ومراتبهم الاجتماعية والوظيفية. ان لقاء بشريا من هذا النوع لا تعرفه أية مؤتمرات أوندوات اخرى،ولاتحصد مكاسبه الكثير من الملتقيات في العالم.(٢٠)

ويرجع شريعتي الحج الى شكل من اشكال الهجرة. انه هجرة مزدوجة، فهو من جهة هجرة ذاتية أنفسية، يغادر فيها المسلم عالمه الخاص، أولاده، مقتنياته، منزله، ممتلكاته، كذلك يتحرر من خطاياه، وموبقاته، ونوازع الشر، والأهواء في نفسه، ويتطهر من الأحقاد، والأغلال، والكراهية. لابد من ان يوفي كافة ديونه، والديون هنا لاتقتصر على الأموال المقترضة، وانما تتجاوزها الى انتهاكات حقوق الناس ومظالمهم، وهي الديون الأهم في عنق الانسان. هذه هي الهجرة الذاتية الانفسية، وبموازاتها يهاجر الحاج هجرة اخرى في عالم الانسان، هجرة خارجية آفاقية، ليتعاطى مع الكثير من الناس، الذين يعاشرهم لأول مرة، ويتوغل في عالمهم، وثقافاتهم، وتقاليدهم، وطبائعهم، ويتفاعل معهم، مكتشفا آفاقا متنوعة، وخصائص عديدة، وظواهر مختلفة، في الاجتماع الاسلامي.انها رحلة وهجرة في عمق الاجتماع الاسلامي، تسهم في اخصاب وعي المسلم، وتدمجه بمحيطه الثقافي والاجتماعي الشامل، وتقتلع من نفسه مشاعرالاغتراب.(٢١)

وتكتسب الهجرة مدلولا خاصا في الوعي التاريخي لشريعتي، ذلك انه يرتقي بها الى مستوى القانون الفلسفي والاجتماعي، وان ((الهجرة عامل من عوامل التطور والتمدن طوال التاريخ، فمجموعة المدنيات السبع والعشرين في التاريخ التي نعرفها الى الآن، كلها وليدة هجرات تمت من قبل، ولايوجد استثناء واحد لهذه القاعدة. ومن هذه الناحية لاتوجد قبيلة واحدة كانت بدائية، ثم تمكنت صدفة ان تتحضر، وتغيرت ثقافتها، وأوجدت ثقافة جديدة متقدمة، من دون أن تتحرك وتهاجر من أرضها الى أرض اخرى...فكل الحضارات في العالم، سواء كانت آخرها وأحدثها، وهي حضارة امريكا الحديثة، أوأقدم الحضارات التي نعرفها، وهي الحضارة السومرية، انما وجدت كلها على أثر هجرات. مما يعني ان المجتمع البدائي ظل بدائيا طيلة بقائه في أرضه، وتمكن ان يتحضر، وتغيرت حالته جذريا، بعدما هاجر الى ارض ثانية وأقام فيها.كل الحضارات كانت وليدة هجرة المجتمعات البدائية)).(٢٢)

وتحليل مضمون الحج على انه نوع من الهجرة، يعني ان للحج وظيفة تمدينية حضارية، مثلما هي الهجرة ودورها في صناعة الحضارة في التاريخ.

ان شعائر الحج هي مذكرات هاجر وابراهيم، وملخص مافعلته هاجر هو الهجرة، والانتقال من مرحلة ماقبل الحضارة الى الحضارة، وان أية هجرة من نوع هجرتها هي حركة باتجاه الحضارة.(٢٣)

ويكرس شريعتي عدته المعرفية، وثقافته المتنوعة، ومفهوماته الخاصة لموضوع ((الهجرة)) وغيره، كأدوات تفسيرية لأعمال الحاج، ومايؤديه في مناسكه من ممارسات، ومايمتنع عنه من محظورات. بحيث تغدو هذه الممارسات نحوا من الهجرة الأنفسية الآفاقية عند الفحص والتدبر.

صدر عن دار (المدى)
" ابن خلدون، رائد العلوم الاجتماعية والإنسانية "
دراسة في فكر ابن خلدون وتراثه المعرفي

ابراهيم حاج عبدي
دمشق

يؤلف كتاب "ابن خلدون، رائد العلوم الاجتماعية والإنسانية"، الذي صدر حديثاً عن دار المدى بدمشق، هو الباحث والأكاديمي العراقي فؤاد البعلي الذي ولد ببغداد، وتابع دراسته الجامعية وما قبل الجامعية هناك. حصل على شهادات الماجستير والدكتوراه في علم الاجتماع من الولايات المتحدة الأمريكية. بدأ حياته التدريسية الجامعية عام ١٩٦٠ في الولايات المتحدة. عمل بجامعات عدة منها جامعة بغداد، وجامعة فلوريدا، والجامعة الأمريكية ببيروت، وجامعة الكويت، وجامعة كنتاكي الغربية في الولايات المتحدة حيث يعمل حتى الآن، وحصل من هذه الجامعة الأخيرة على جائزة تقديرية في التدريس. نشر منذ نهاية الخمسينيات من القرن الماضي عدة أبحاث ودراسات من أهمها: "الفلسفة الاجتماعية والأخلاقية عن إخوان الصفا"، "علاقة الناس بالأرض في جنوب العراق"، "وحدة العرب وفرقتهم: الماضي والحاضر"،"علم تنظيم الاجتماع السكاني"، كما أصدر كتبا بالاشتراك مع باحثين آخرين، ومنها: "مدخل إلى علم الاجتماع"، "علم الاجتماع الحضري"، "اوجه الانحراف".

واللافت في سيرة هذا الباحث هو أن اهتمامه الرئيس يكاد ينصب على فكر ابن خلدون، وتراثه المعرفي، فقد اصدر من قبل كتبا عدة عن ابن خلدون، موضوع كتابه الذي نعرض له، ومن أهم هذه الكتب، "ابن خلدون وأنماط التفكير الإسلامية" بالاشتراك مع المفكر العراقي علي الوردي، وكذلك كتاب "المؤسسة الاجتماعية: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون"، و"ابن خلدون وعلم الاجتماع الحديث"، وهو في كتابه الجديد " ابن خلدون، رائد العلوم الاجتماعية والإنسانية" يواصل البحث بشكل معمق في فكر ابن خلدون، ويسعى إلى تبيان جوانب مختلفة من تراث هذه الشخصية العلمية البارزة التي تحتاج إلى المزيد من الدراسات والأبحاث، وهو ما يؤكده الباحث إذ يشير في مقدمته، كنوع من التبرير لبحثه هذا، إلى ما يقوله المفكر العربي عبد المجيد مزيان: "إننا لنتعجب من الذين يلومون على الباحثين مبالغتهم في الاعتناء بابن خلدون، إذ مازلنا نرى أن الأبحاث التي صدرت عنه غير كافية حتى الآن للإحاطة بجميع جوانب ومهام وأهداف علم العمران الخلدوني"، وهو ما يؤيده الباحث البعلي ويدفعه للإسهام في إلقاء المزيد من الضوء على نتاج هذا المفكر الكبير، كما يفعل في هذا الكتاب.

ابن خلدون هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون والي الدين التونسي الحضرمي. ولد في تونس سنة ١٣٣٢ ميلادية، وتوفي في القاهرة سنة ١٤٠٦ ميلادية. وهو يعتبر أحد أهم الباحثين في مجال التاريخ، وعلم العمران، ولعل الأثر الأبرز الذي تركه هذا المفكر هو "المقدمة" الشهيرة، الفاعلة، والمؤثرة، حتى اللحظة، ويعود السبب في ذلك، وفق رأي الباحثين، إلى أن الأسئلة التي طرحها الكتاب لا تزال هي الأسئلة المطروحة على التاريخ حتى اليوم. فـ "المقدمة" يعتبر أول نص في التاريخ يربط الأحداث بأسبابها الاجتماعية والمناخية والجغرافية، ويقول بمبدأ "التوليد"، بمعنى أن الأحداث تولد من بعضها البعض، لا في تعاقب زمني بسيط، وإنما في تعاقب تعددي مركب. ولعل ابن خلدون هو أول من انتقد، في شكل علمي ممنهج، المؤرخين المسلمين الذين سبقوه مثل: ابن اسحق، والطبري، والاشدي، والواقدي...وسواهم ممن قال عنهم في مقدمته: "إن التاريخ على أيديهم صور تجرد من بوادرها. وهم على الجملة، إذا تعرضوا لذكر دولة نسقوا أخبارها نسقا، محافظين على نقلها وهما أو صدقا، لا يتعرضون لبدايتها. ولا آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها".

وفق هذه الآراء فان ابن خلدون ابتكر منهجا جديدا لكتابة التاريخ، فلم يعد الأمر يقتصر على تدوين الوقائع فحسب، بل في تعليل الوقائع تعليلا علميا يقوم على الملاحظة والمقارنة والموازنة والمعارضة، ولا سيما دراسة البيئة، وأصول العوائد، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران. هذه المسائل وغيرها يتناولها البعلي في كتابه، وهو يطرح في بداية كل فصل سؤالا جوهريا من قبيل: هل ابن خلدون بعيد عن العلوم الاجتماعية؟ هل هو فيلسوف؟ هل هو مؤرخ؟ هل هو عالم اجتماع؟ هل هو عالم انثروبولوجيا؟ هل هو عالم جغرافيا اجتماعية؟ هل هو عالم اقتصاد؟ هل هو عالم سياسة؟ وسواها من الأسئلة المهمة التي تتفرع عنها أسئلة ثانوية، ثم يمضي الباحث منقبا في المصادر الكثيرة التي بلغ عددها اكثر من ثلاثمائة مصدر، بحثا عن الأجوبة، محاولا حشد الأدلة الكافية حول أي حكم يصدره، وهو حريص على أن يدرج الآراء المختلفة، المتباينة المتعلقة بشخصية ابن خلدون الإشكالية. غير أن هذه الموضوعية التي يتحلى به البحث لا يستطيع إخفاء إعجاب المؤلف بابن خلدون، فهو يستفيض في الاستشهاد بالآراء التي تمدح ابن خلدون، في حين يقلل من ذكر تلك الآراء الناقدة له، ولعل ما يبرر له هذا التوجه هو أن ابن خلدون، وكما يقول البعلي، "حصل على قليل من القدح، وكثير من المدح".

والملاحظ أن الباحث يفرد الفصل الأول للحديث عن الجوانب الذاتية في شخصية ابن خلدون وانتماءاته، والنزعات التي كانت تمور في داخله، وينطلق الباحث هنا من سؤال: هل ابن خلدون عبقري؟ الكثير من الآراء أجمعت على هذه الصفة، إذ يعتقد ارنولد توينبي صاحب "قصة الحضارة" بان "ابن خلدون يستحق صفة العبقرية وذلك لإنجازاته ومآثره الفكرية، ففي وقت قصير أنشأ فلسفة تأريخ يمكن اعتبارها اعظم الأعمال في هذا المجال، بحيث لم يستطع أي عقل في أي مكان القيام بها من قبل"، وثمة نعوت كثيرة قيلت فيه أجمعت على اعتباره "ظاهرة فريدة في ميدان الفكر الاجتماعي"، وبأنه من "اعظم المفكرين النظريين"، و"واسع التصور والذكاء"، و"صاحب فكر عقلاني نفاذ وتفكير معرفي خارق"...وسواها، وفيما يتعلق بأصله العربي يقول البعلي بان "معظم المراجع التي اعتمدنا عليها ذكرت، بدون تردد، أن ابن خلدون عربي الأصل، لكن عددا ضئيلا من المراجع ذكرت أن ابن خلدون لم يكن عربيا، وانه، حسب بعض الآراء، ولد وترعرع في مجتمع البربر وتكلم بلسان وطنه البربر"، ومن أهم المعارضين لهذا الرأي هو فرانز روزنتال الذي يقول "إن اصل ابن خلدون العربي عن آبائه وأجداده لا يمكن الشك فيه، وإن كان بالإمكان وجود دم البربر والأسبان في أوردته أيضا. وما يقرر الأمر هو اعتقاده بأنه من اصل عربي، وهذا، بحد ذاته، يمنحه هذا اللقب النبيل".

ويناقش الباحث موقف ابن خلدون من العرب ويحاجج بان نقده للعرب وللبداوة يمثل نوعا من الموضوعية في وصف الواقع، ولا يعني ذلك بأنه كان يضمر الكره لمجتمع يعيش بين ظهرانيه، وتختلف الآراء كذلك حول تدين ابن خلدون وتصوفه. ولكن ما يتفق بشأنه الباحثون في الشرق والغرب، هو "المقدمة" التي أنجزها ابن خلدون والتي حظيت بمدح كبير إذ تعتبر المقدمة "عملا أصيلا في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال قارة أفريقيا، بما له من تقاليد وعادات وعلاقات اجتماعية"، وقد اعتبرها بعض الباحثين "اسبق دراسة للحضارة الإنسانية وفلسفة التاريخ"، بينما ذهب آخرون إلى القول ان المقدمة "لا تزال أفخم واشهر نصب تذكاري"، في حين يقول توينبي: "ليس هناك عمل يضاهي المقدمة لاسيما في إبداعها".

ويصل الباحث في نهاية البحث إلى استنتاجات عدة منها أن غالبية الذين كتبوا عن ابن خلدون كانوا مقتنعين بأنه أنشأ مجالا جديدا من المعرفة لم يكن معروفا في زمنه، وبأنه عالج علمه "بقوة وبراعة"، واستخدم طرق البحث لكي يشرح ويحلل ويصل إلى تعميمات دقيقة عن الظواهر الاجتماعية. الثقافية الموجودة في عصره، واستطاع بتلك المحاولة أن يتفوق على المفكرين الذين سبقوه، وهذا العلم الجديد يبحث في ظواهر عديدة لها علاقة بالعمران البشري والاجتماعي الإنساني، كما يلاحظ الباحث أن العديد من الكتابات التي بحثت في أفكار ابن خلدون حاولت أن تعرف وتشرح موضوع أو مادة "علم العمران"، ونتيجة لذلك فقد حصلت عدة تعميمات شاملة بعضها يفتقر إلى أدلة، وبعضها يتصف بشروحات قليلة غير مقنعة. غير أن بعض الباحثين رأى بان منهج بحث ابن خلدون كان السابق والرائد للبحوث التي جاء بها بعض المفكرين فيما بعد مثل فرنسيس بيكون، وسبنسر، ودوركهايم، ويظهر ذلك واضحا في محاولة ابن خلدون الوصول إلى قوانين لتفسير الظواهر الاجتماعية تشابه القوانين الطبيعية. ويخلص الباحث إلى القول "إن بداية أي علم جديد تتسم بالغموض. ولا يستثنى من ذلك "علم العمران". فقد كان ابن خلدون متواضعا جدا عندما اعترف بعيوبه، وكان عالما موضوعيا حين سأل طلاب العلم أن يفحصوا كتاباته "بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء"، وكان واثقا بان هناك من يأتي بعده "ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين، يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما تكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا إلى أن يكمل"، وما قاله ابن خلدون ينطبق، كما يشير الباحث، على ما حدث بعد وفاة اوغست كونت، حيث عانى علم الاجتماع من عيوب عديدة، ولكن مع هذا كان متميزا، متنوعا، ومثمرا.

وكان ابن خلدون واثقا بأنه اكتشف علما جديدا مستقلا بنفسه وموضوعه، واسماه "العمران البشري والاجتماع الإنساني"، وهو يقول "الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص"، وقد سبقت بعض أفكاره الفكر الاجتماعي الحديث، وأيا كانت الآراء حول هذا المفكر فانه يعد واحدا من ابرز المفكرين العرب الذين تركوا تأثيرا كبيرا على مدارس علم الاجتماع الحديث، وعلم التاريخ، وطرحوا أفكارا نيرة لا تزال تثير الجدل والنقاش.

شطحات النقطة

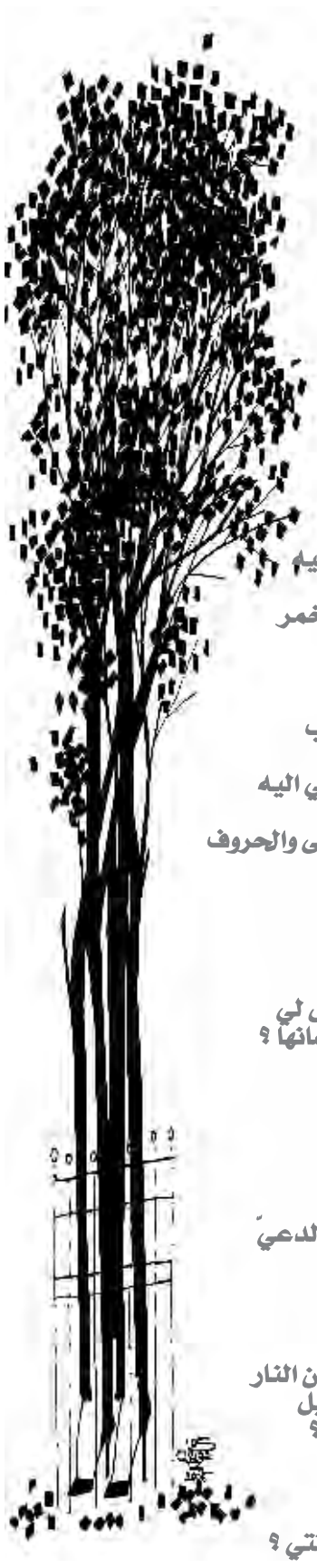

شعر : أديب كمال الدين

(١)
أدافعُ عن حرف ليس لي
أدافعُ عن نونٍ لهَا مالها
وعن جيمِ تقوَد طفولتي
نحو فراتٍ من السكاكين
وعن شينٍ مَقدسةٍ من تراب.
(٢)
أخذوا النونَ واستووا عليها
فكانت لهم مركباً طيبا
ولي سندبادُ خوفٍ ونارٍ وموجٍ وتيهٍ
وأخذوا الجيم
واغتالوا شبابها في توابيت من خمر
وتوابيت تنضحُ ماءٍ
يمر من تحت قدمي المذعورتين
وأخذوا الشين
صارتْ بأيديهم أساطيرَ من ذهب
ودولاً من سوادٍ وخوف
وتبادلوا الدورَ مع حُملَ رأسي اليه
فقالوا وهم يذرفون الدموع :
باسمكِ أيها الرأس المثقل بالأسى والحروف
نؤسس مملكة للحتوف
سنرقص فيها على الطبل
ونتركك في عطشٍ ترتجف
في جلالٍ ونورٍ تموتُ.
(٣)
كيف لي أن أدافع عن حرف ليس لي
ونخلة لم أعد أجلس تحت أغصانها ؟
كيف لي أن أدافع
عن زمنٍ أزرق له عريه الذهبي
وناره السوداء ؟
عن زمنٍ ليس يعرفني
ليس يعرفُ أحدا أبدا ؟
كيف لي أن أدافع
عن ملحمة لها شاعرها الذكيّ الدعيّ
وكتابٍ له مؤلفه اللوذعي ؟
(٤)
أدافع ؟
كيف أدافع عن أبجديتي
وأنا الذي رمانيَ السحرة بلوحٍ من النار
ورماني الفجر بحجارة من سجيل
ورماني الرماة بسهمٍ منَ الحقد ؟
كيف لي ،
بعد هذا جميعا ،
أن أدافع عن حريتي
وأمنحه ماء قلبي وشمسَ كينونتي ؟